بريد الذاكرة الهاربة من الحرب.. العالِقة في براثنها

بيسان طي

«أنتم جبناء، أنتم من صوَّت لهذه الطبقة التي تحكمنا»، هكذا رمى أبناء الجيل المُراهق في وجهنا بحقيقةٍ ما يفكِّرون به تجاه جيل الآباء والأمّهات في لبنان اليوم.

في حراك العام 2019 الشعبيّ في لبنان، أو ما يُسمّى بتاريخ انطلاقته 17 تشرين[1]، تردّدت أكثر من مرّة، على شاشات التلفزة بشكلٍ خاصٍّ، صرخات طلّاب المرحلة الثانويّة، وهُم يصيغون بتعبيراتهم الخاصّة الغضب ضدّ الجيل الأكبر. بين الغاضبين، غاضبات من جيل المُراهقين، وبين المغضوب عليهم، بنات جيلي، أمّهات يتحمّلن هنّ أيضاً مسؤوليّة بقاء المنظومة الحاكمة. وقْع التّهمة، لا الصرخة، ثقيل وجارح، بالتحديد لأنّه يَضع جيل الحرب[2] ـ المولود خلالها ـ في دائرة لم يتنبَّه إلى

(1) انطلقت في 17 تشرين الأوّل/أكتوبر 2019 مَوجة من الاحتجاجات الشعبيّة التي شاركت فيها أعدادٌ كبيرة من اللّبنانيّين، تصل في معظم التقديرات إلى مئات الآلاف. استمرّت الاحتجاجات بوتيرةٍ مُختلفة لأكثر من شهرَيْن، وقد عمّت مختلف المناطق اللّبنانيّة، وشارك فيها مواطنون من بيئات وانتماءات سياسيّة مُختلفة، ورُفعت شعارات في وجه مكوِّنات السلطة اللّبنانيّة، وذهبت بعض المجموعة إلى المُطالبة بإسقاط الحكومة وإنهاء عهد البرلمان القائم والمُطالَبة بانتخاباتٍ نيابيّة مبكرة، وتميّزت بُمشارَكة مجموعات أخرى في الاحتجاج ضدّ السياسات المصرفيّة في البلاد.

(2) المقصود بهذا التعبير هو الحرب الأهليّة اللّبنانيّة التي استمرّت لنحو 15 عاماً (1975 ـ 1990)، وتوقّفت بفعل توافُقٍ خارجيّ =

مسؤوليّته عنها، ولأنّ العبارات التي أُطلقت تُبيِّن إلى حدٍّ كبير خَيبة الجيل الأصغر وانقطاع التواصُل ما بين هذَين الجيلَين، أدركنا أنّ البريد لم يحمل رسائل مُتبادَلة بين الجيلَيْن.

هذه المقالة هي مُحاولة لملء فراغ البريد المعطَّل، وهي رسالة لا تحمل تبريراً، إنّما تفتح النقاش، كما رسائل العرب قديماً، في أبواب عدّة، لعلّ الكلام المكتوب يردم الهوّة التي صنعها الـ«لا» كلام.

في باب المراهقة ومرآتها

تحمل ملامح مرحلة المُراهَقة كما عاشها جيلنا، المُراهَقة في ظلّ الخطر على الحياة، الكثيرَ من الندوب والمَخاوِف، وتحمل قلقاً لا ينطفئ. هذه الجروح وإن تمّت تغطيتها بالمساحيق أو عمليّات التجميل أو آليّات الإنكار المتعدِّدة، فإنّها عميقة تطفو آثارها عند كلّ انفجارٍ أو اهتزازٍ أمنيّ، وهي المعوِّق الأوّل والسبب الرئيس لانكفاء بنات وأبناء جيل الحرب طويلاً عن السياسة، ومن أسباب الاستسلام، غير المُعلَن أحياناً، لفرحة الوعد بحياةٍ آمنة، حياة لا تتحكّم بها لغة البنادق والقصف المدفعيّ والسيّارات المتفجِّرة المُتنقّلة، لغة الموعد اليوميّ مع الحواجز التي تَمنع الحريّة وتُقيِّد الحياة.

ثمّة ما يجمع بيننا، نحن وأنتنّ، تلك الأوقات الطويلة التي نُمضيها أمام المرآة. لكنّنا وُلدنا وعشنا المُراهَقة في سنوات الحرب، كنّا حين نتزيّن للخروج من المنزل ننجح أحياناً في لفْتِ أنظار الشبّان، أو كانت مشاويرنا تنتهي أحياناً أخرى في مخبئٍ ما، نُهرول وقد بَعْثَرت جمالَنا خطوطٌ من سواد الدخان الصاعد من تفجير، أو دماءُ ضحيّة وقعت بطلقة قنّاص. كان ثمّة طريق نحو الحريّة نشقُّه بعنادٍ أو مُوارَبة أو مُمالأة بحثاً عن مساحة للحبّ، للشقاء، للطريق نحو «الآخر»، في بلد الكانتونات التي كانت مُقفَلة بسلاح الدم والنار، أو كنّا نستسلم بفعل الدعاية المكثَّفة لحدود كانتوناتنا كأنّها مساحة العالَم كلّه.

كنّا نكبر في الحرب، وكانت الحرب تغرق أكثر فأكثر في الوحول الطائفيّة.

نحن أردنا أن نكون أنتنّ، أن نعوّض ما فاتنا بالسطو على الشباب الدائم، جاءت عمليّات التجميل كمعول يمدّ نضارة المُراهَقة وفترة الشباب الأولى، وغرفنا من الحياة ما

= أميركيّ ـ سعوديّ ـ سوريّ، تمّت ترجمته من خلال مؤتمر الطائف الذي عُقد في مدينة الطائف السعوديّة، وانتهى بإعلان وثيقة (دستور مجدّد) للبنان.

لم نشبع منه ونحن صغيرات. لم نقُم بحياكة شالات الصوف لكنَّ، كما فعلتْ أمّهاتنا، ولم نروِ لكنَّ شيئاً عن البلاد، وعن النِّزاعات والتحدِّيات التي تُمزِّق منطقتنا، أردنا لكنَّ حياةً هانئة، في قوقعةٍ ورديّة منفلتة من كلّ ركيزة، ولا تطلّ على الواقع في بلادنا.

أردنا أن نكون ما دفعناكنّ إليه، أو ما حلمنا بتأمينه لكنّ، نحن بنات الجيل الذي أُتيح له قسطٌ وفيرٌ من التعليم، أردنا أن نكون ـ بالمال ـ ما يتحقّق لليافعين في الخارج: مساحات من التدريب الرياضيّ، والموسيقى، والفنون التشكيليّة والغناء و...، لكنّنا لم نتعلّم كيف نكتشف الهواية داخل كلّ واحدة منكنّ، أردنا اكتمال الصورة التي لم تتحقّق لنا فقط.

في باب العَيش والحريّة

لمّا انتهت الحرب، كنّا مُتعبات ومُتعبين من الأقفاص التي سُجنّا فيها منذ الولادة، كنّا نبحث عن آمالٍ للعيش، مساحات للفرح، لتنشُّق هواء لا ينقطع حين تتكدّس الأجساد لأيّام في الملاجئ. تزامنت نهاية الحرب مع ولادة «عالم جديد» تقوده الولايات المتّحدة وحدها، أُخذنا بإرادتنا نحو نموذجٍ اقتصاديّ شموليّ يُسيطِر على العالَم. كانت النيوليبراليّة[3] تُراقصنا كما تُراقِص الأفعى جمهور الحاوي، إذ إنّ السحر الذي مارسته

(3) ظهر مصطلح النيوليبراليّة لأوّل مرّة في العام 1884، وهو وفق تعريف الموسوعة الفرنسيّة، عقيدة تحمي الحريّة القصوى للشركات وترفض تدخُّل الدولة في شؤون السوق والحياة العامّة إلّا بحدودٍ نادرة، للمراجعة:
https://www.encyclopedie.fr/definition/n%C3%A9olib%C3%A9ralisme
في ثلاثينيّات القرن العشرين، بدأت مُحاولاتُ إعادة تعريف النيوليبراليّة، لتحديد حجْم تدخُّل الدولة في الاقتصاد، لكنّ هذا المُصطلح بقيَ قليل التداول في الأدبيّات العالَميّة السياسيّة والاقتصاديّة، حتّى بداية السبعينيّات من القرن العشرين، من جهة بسبب تزايُد قوّة مدرسة فريدمان الاقتصاديّة وحضورها، ومن جهة أخرى مع تولّي دونالد ريغان الرئاسة في الولايات المتّحدة ومارغريت تاتشر في بريطانيا، وقد أطلقا ما يُعرف بالعصر الذهبيّ الأوّل لسيطرة النيوليبراليّة في الفكر والاقتصاد من حيث تضخيم عمليّات الخصخصة وتولّي القطاع الخاصّ والشركات الكبرى العمليّات الماليّة والأسواق، على حساب القطاع العامّ، وفق ما جاء في كتاب دايفيد هارلي
«A Brief History Of Neoliberalism» (Oxford University-2005).
شكّلت النيوليبراليّة عقيدة للمنظومة المُعَوْلَمة بقيادة الولايات المتّحدة كقطبٍ عالَميّ واحد منذ بداية التسعينيّات من القرن الماضي مع تولّي جورج بوش الأب الرئاسة في الولايات المتّحدة وتقدُّم المُحافظين الجُدد في السيطرة على مفاتيح الحُكم في بلاده، وتُرجم ذلك على المستوى العالَميّ من خلال مفاعيل حرب الخليج في العام 1991. وقد سمحت هذه المنظومة بسنّ قوانين ضرائبيّة وماليّة وبواقع اقتصاديّ لصالح الشركات العابرة للقارّات، وفق كِتاب انتصار اللّاعدالة «The Triumph of injustice», Emmanuel Saez & Gabriel Zucman, Washington DC, 2019). نُشير في هذا الإطار إلى أنّ السلع الأغلى سعراً أو ما يُعرف بالـ Brand، تُشكِّل جزءاً من هذه الشركات =

الفكرة النيوليبراليّة تتمثّل بوعودها بالاستقلال الفرديّ وقدرة المُجتمع على تنظيم نفسه بنفسه. هكذا في مُواجَهة منظومات الوصاية القديمة وحرّاس الفضيلة والانضباط، بَدَتِ النيوليبراليّة تُروِّج لأفرادٍ مُتحرِّرين من القيود يتمتّعون باستقلاليّة «مقاول يتعهَّد حياته بذاته»[4].

أخذناكنّ معنا إلى غواية ذلك السحر، كنّا نسبح فيه كأنّه جنّات من نعيم، وتربيّتنّ بفضل استسلامنا لهذه الغواية على مبادئ النيوليبراليّة ومفاهيمها وإيقاعها وأدواتها، كأنّه ليس في الكون أيّ خيار آخر، كأنّها كتلة «الصحّ» المُطلق، كأنّها قوانين الكَون كلّه منذ الخلق إلى نهاية التاريخ. صارت النيوليبراليّة إله تفكيركنّ. صارت سجناً آخر تدرنَ في فَلكه، كالمُسافرات على مَتن كبسولة مَرميَّة في فضاء هذا الكَون السحيق المُختصر للحياة الاجتماعيّة والاقتصاديّة والفرديّة باسم الحريّة، وحيث الخروج منها هو الموت الأكيد.

نحن كبرنا في عالَم يدور على صراعٍ دوليّ[5]، فيه قطبان، نموذجان يُمكن الاختيار بينهما، النموذج اللّيبراليّ والنموذج الشيوعيّ إلى حدٍّ كبير. أمّا أنتنَّ فقد تفتّحت عيونكنّ على عالَم قطبٍ تاريخيّ جديد، إرساؤه تمّ كمنظومةٍ ليبراليّة ـ رأسماليّة، وقد اجتاحت كلّ مَيادينَ الحياة الاجتماعيّة لمصلحة الطغمة الماليّة. الاستغلال الاقتصاديّ كان محرِّك السطوة السياسيّة والأيديولوجيّة. هذه السلطة، بخلاف الأشكال الأخرى من التوتاليتاريّة، إنّما هي مرجع ذاتها لأنّ المُمارسات القائمة فيها يقوم تبريرها من خلال فكرٍ جديدٍ يتمّ ترويجه عبر وسائل الإعلام وتُنفِّذه المؤسّسات الدوليّة[6].

ما زال هذا الخطاب يُشعرنا بالنشوة، يُداوي شيئاً من الحرمان، يوهمنا بأنّ شبح الفقر لن يطولَ، كما أُوهِم مئات الملايين من النساء والرجال حول العالَم بحياة الترف، فانتشرت بين فئاتٍ واسعة من أبناء الطبقات الوسطى ثقافة الـ«ماركات» والاقتراض بفوائد عالية

= العابرة للقارّات، ومعظمها يقوم على اسم الشركة الغربيّة، فيما تتمّ عمليّات التصنيع في دولٍ فقيرة ويتلقّى عمّال المعامل فيها رواتب شديدة الانخفاض قد لا تزيد على 26 دولاراً في الشهر، وفق تقارير منظّمة Attac.

(4) Grégoire Chamayou, *La société ingouvernable* (Paris: Editions La Fabrique, 2019), 5.

(5) الصراع الدوليّ المقصود يتمثّل بالحرب الباردة، وقد دارت رحاها بين الولايات المتّحدة ذات النظام الاقتصاديّ الحرّ وحلفاءٍ لها من جهة، والاتّحاد السوفياتيّ والكتلة الشرقيّة أو الدول التي تبنَّت الفكر الشيوعيّ أساساً للحُكم. انتهت الحرب الباردة بهزيمة الاتّحاد السوفياتيّ وتفكيكه ابتداءً من العام 1989، وكانت حرب الخليج في العام 1991 إعلاناً لانتصار الولايات المتّحدة وسيطرتها المُطلقة كقوّةٍ عظمى وحيدة.

(6) Jacques Langlois, *Le libéralisme totalitaire* (Paris: L'Harmattan, 2013), 7.

لتأمين مستوىً معيشيّ يُحاكي سلوكيّات الأغنياء، البرجوازيّين منهم أو الأثرياء الجُدد، وصار الفقراء أيضاً يحلمون بتقليد أبناء الطبقة الوسطى.

حوّلنا قوّة العمل ورأسمالنا إلى ما يُشبه لعبة القمار، نقترض لنتوهَّم أّننا أغنياء، ولم نَقُلْ لكُنَّ أنّ الحياة خارج «المول» أجمل، وأنّها مُمكنة إن انطفأ العالَم الافتراضيّ قليلاً.

في باب الهجرة

لمّا انتهت الحرب، أو بعد انتهائها بسنواتٍ معدودة، شُرِّعت لنا أبواب الهجرة إلى دول الخليج العربيّ بشكلٍ خاصٍّ، وإلى أميركا الشماليّة، كما لم تُقفل الحدود الأوروبيّة نهائيّاً في وجهنا. حُلم الهجرة يجمعنا، لكنّ الفَرق بيننا شاسع، فأنتنّ اليوم من عالَم ترتفع فيه الحدود بشكلٍ غير مرئيّ، وتشتدّ فيه البطالة وتنكشف عَورة الاقتصاد الحرّ المُعوْلَم، ما يَجعل أيَّ أُفقٍ للخروج من البلاد لا يعدو كونه مساحةً لتجربة العيش بشظف، برواتب من فتات الخبز والدولار. هذه الهجرة التي يُمكن بالطبع مناقشة كلّ آثارها في مَوقعٍ آخر، في رسالةٍ أخرى، صارت خطوة صعبة التحقيق، شديدة الصعوبة، العالَم لم يَعُد في حاجة إلى غرباء إلّا نادراً.

بينما الهجرة في عهدنا كانت مشرَّعة، اتّسع لنا سوق العمل في أكثر من دولة. ففترة ما بعد الحرب الأهليّة (1975 ـ 1990) شهدتْ مَوجةً مكثَّفة من هجرة الكادرات وأصحاب الكفاءات إلى الغرب وإلى دول الخليج[7]، بسبب المنظومة الاقتصاديّة التي ترتكز على التجارة والسياحة والمصارف. وهي منظومة تـمّ تدعيمها في التسعينيّات وتبنَّتها الحكومات المُتعاقِبة ربطاً بالسياسات الاقتصاديّة النيوليبراليّة. تلك السياسات التي شهدت انتصارها وبداية حُكمها العالَميّ قلّصت سوق العمل الداخليّ، ووفق دراسة أجرتها الجامعة اليسوعيّة في لبنان قُدِّر حجْم الهجرة السنويّة في مطلع الألفيّة الثانية ما بين 35 ـ 55 ألف شخص. كان السبب الرئيس للهجرة هو السعي وراء العمل اللّائق، هكذا حين حلّ العام 2008، أي عندما كنتنَّ في سنوات العمر الأولى، كان ثلث القوّة العاملة اللّبنانيّة في دول الخليج العربيّ، وفق وزير الماليّة حينها محمّد شطح[8]. وقد

(7) Paul Tabar, *Lebanon: A country of emigration and immigration*, (Beirut: LAU Press, 2010), 8.

(8) «Lebanon Starts to Feel the Pinch of Financial Crisis», *Reuters,* December 6, 2008.

كانت هجرة مترفة غالباً تلك التي نَعِم بها جيلنا، مزيّنة بوعد الاندماج الأكبر في المنظومة النيوليبراليّة، في متاهات المولات وكواليس الاستهلاك ببذْخٍ مُفرط، بإدمانٍ كثيف. لم نرَ في المُجتمعات التي ذهبْنا إليها سوى الفيترينة العالَميّة، ففكّكت الهجرة أيَّ ارتباطٍ مُمكن بالطبقات التي ننتمي إليها حقّاً، صرنا كما مريض موليير برجوازيّين وهميّين، وأورثناكنّ هذا الوهْم بشروطِ الخضوع لعقدةِ نقْصٍ تجاه أدوات الدولة الأقوى في العالَم، لا بشروط امتلاك أدوات المعرفة والبحث والتحليل والنقد.

في باب الذاكرة

عالمانا مُختلفان على الرّغم من التقاطُعات العصريّة بيننا، وقد يكون التواصل شبه مُنقطع لأنّنا لم نُبلْور ذاكرةً مُشتركة تجمعنا. نحن وأنتنّ، لم نسعَ لبناء هذه الذاكرة، استسلمنا نحن لما تُعدُّه لنا سلطة السياسة وسلطة رأس المال، وسلطة الإعلام التقليديّ من جهة، ووسائل التواصل الاجتماعيّ من جهة أخرى. تلك الساعات الطويلة التي تسجنَّ أنفسكنّ فيها، ونذوب نحن في عالَمِها، ساعات الانشغال بشاشة الهاتف والعالَم الافتراضيّ جَعلتِ الكلامَ بيننا قليل، ألَم يَكتب بورخيس أنّ الكلمات هي رموزٌ تتطلّب ذاكرة مُشترَكة[9]؟

في المقابل فإنّ الجيل الأكبر يبدأ ببلْورة صورته الاجتماعيّة بالمُقارَنة مع جيل أبنائه[10]. لكنّنا، قبل أن يُعلن الانهيار، لم نكُن نريد أن نذهب عميقاً في فضْحِ الجراح، ولم نَبحث عن مُحاسَبة مُجرمي الحرب، ولا أصحاب السلطة في السياسة والمال، نحن عشْنا واقعاً سياسيّاً صعباً حتّى بعد انتهاء الحرب، وكانت مُواجَهَتُه تعني أن نتخلّى عن الحياة المُتخيَّلة الهانئة، لذلك هربنا من الذاكرة، ذاكرة الماضي وذاكرة الحاضر، مُتجاهلين أنّه «من دون الذاكرة لا يقوم عقْد، ولا تحالُف، ولا ثمّة مُعاهَدة مُمكنة. بلا الذاكرة لا وجود للوفاء كقيمة، ولا ثمّة وعود... أي أنّ العقْد الاجتماعيّ لا يقوم بلا الذاكرة، ولن تكون بذلك المُجتمعات أمراً مُمكناً، ولا هويّة الفرد ولا الهويّة الجماعيّة. الذاكرة شرط المعرفة،

(9) Borges J L, Œuvres complètes 1975-1985, Barcelone, Maria Kodama y Emercé Editores, 1989, p 31.

(10) Attias-Donfut Claudine, «Rapports de generation et parcours de vie,» *journals.openedition,* 27, June, 2013 (en ligne) https://journals.openedition.org/enquete/82.

من دونها تختلط الأمور ببعضها ويصير كلّ شيء مهدَّداً بالموت... لأنّها في أساس كلّ عمليّة نقل، هي القاعدة المؤسِّسة للثقافة»[11].

في باب المُصارَحة

لا تبغي هذه الرسالةُ البحثَ عن مبرِّرات ولا إدانة جيل الحرب بما اقترفه من دون وعي، من تثبيتِ منظومةٍ أخطبوطيّة في السياسة والاقتصاد والثقافة، حملت آمال الجيل الأصغر ومُستقبله إلى المجهول، ولا تنوي الرسالة جلد الجيل الذي تنتمي إليه المُراهقات اليوم.

هذه الرسالة تحاول أن تضيف إلى النقاش العامّ دعوةً للبحث عن نقاطِ ضعفٍ متراكمة جعلتِ النظام الطائفيّ أكثر شراسة وحضوراً، على الرّغم مِن كلّ ادِّعاءات الحداثة، بل الانتماء إلى الحداثة المتأخِّرة وعصر التسريع؛ إذ يُواجه كلّ جيل حقيقةً اجتماعيّة وتاريخيّة، وترتسم شروطه الاجتماعيّة من خلال القِيَم الخاصّة بهذه الحقيقة إضافة إلى ما يُفرض عليها من أعباء وتناقضات. من هذا المُنطلق يُحدِّد كلُّ جيل المحتوى الوراثيّ الذي سيحمله من الأجيال التي سبقته، كيف سيستوعبه أو يرفضه[12]. قد تكون خطيئتنا أنّنا لم نَفهم تراكُمات العنف الذي واجهته حيواتنا، من عنف الحرب إلى عنف معايير السوق والمُنافَسة الحادّة وسطوة المظاهر المُتبلْورة في المَظهر والمَلبس واللّغة كبابٍ شبه وحيد للنجاح والعيش.

ها هي الأقفاص تُطبِق أبوابها مجدَّداً تضع جيلكنّ في دائرة القلق. والخوف ـ كلّ الخوف ـ هو في ألّا ترفضْنَ ما يُعوِّق أمورَ الحياة الصعبة التي تنتظركنّ، وأن تُكرِّرْنَ الخطأ الذي وقعنا فيه فتكون الاستكانة للمعايير والأفكار التي تَوهّمنا أنّها أبعدت شبح الحرب وأَخذتنا إلى نعيمِ العيش والطيش والشباب الدائم.

أمّا بالنسبة إلى تلك الرغبة الطاغية لدينا بالهروب من إمكانات الحرب أيّاً كان الثمن، فنَعِدُكُنّ بأنّنا سنكرِّر نهجنا، الحرب في قاموسنا لا تعني الموت فقط، بل تعني الـ «لا» حياة، وهذا ما يُثير الرعب والاختناق ويُراكِم عنفاً فوق طبقات العنف المُندثِر في ذاكرتنا.

لقد أطلتُ الكتابة، ولم يَنتهِ الكلام، وللنقاش تتمّة طويلة، فتفضّلْنَ ختاماً بقبول فائق الحبّ والاحترام.

(11) Candau Joël, *Anthropologie de la mémoire*, (Paris: Armand Colin, 2005), 2.

(12) Anne Muxel, article sous le titre de «Temps, mémoire, transmission», *Histoire et Anthropologie,* n 24 (l'Harmattan, 2002): 14-15.